ميخائيل فارشافسكي-ميكادو*

خمسون عاما على ١٩٦٧ -
الحركات المناهضة لسياسة الاحتلال

تشكل حرب حزيران ١٩٦٧ ، ليس فقط تغييرا جوهريا في العلاقات الإسرائيلية– العربية، وإنما انقلابا في الرؤية الذاتية للمجتمع الإسرائيلي ونظامه المؤسسي. فقد رأت إسرائيل نفسها، لغاية انتصارها العسكري على ثلاثة جيوش عربية، كدولة صغيرة، ضعيفة وعرضة للتهديد من قبل عالم عربي قوي ومعادٍ. وكان قسم لا يستهان به من زعامة المجتمع المدني في إسرائيل متفقا مع هذه الرؤية الذاتية، وذلك خلافا للجيش الإسرائيلي، الذي انتظر بفارغ الصبر فرصة سانحة للانقضاض ولشن الحرب والعدوان، في وقت كان يدرك فيه تماما حقيقة موازين القوى. في المقابل فقد عمت، خلال ما أطلق عليه «فترة الانتظار»، وهي الأسابيع الفاصلة بين إعلان الرئيس المصري جمال عبد الناصر عن إغلاق مضائق تيران (في البحر الأحمر) وبين يوم الخامس من حزيران ١٩٦٧، مظاهر الذعر والفزع في صفوف قسم من السكان الإسرائيليين، فرّ كل من استطاع منهم أن يجيز ذلك لنفسه، إلى خارج البلاد، حتى أن البعض اعتاد على القول بسخرية ممزوجة بالخوف : «على آخر من يغادر أن يطفأ النور».

هكذا تحول «الخراب الثالث» فجأة إلى استشفاف حقيقي، وفي المقابل تنامى الأمل في صفوف الفلسطينيين مواطني إسرائيل في أن جمال عبد الناصر سيمحو أخيرا عار النكبة.

الإجماع الشوفيني

بمقدار حجم الخوف والفزع اللذين خيَّما عشية الحرب، هكذا كانت أيضا شدة النشوة التي انتابت الإسرائيليين بعد انتصار جيوش إسحق رابين (رئيس هيئة الأركان العامة للجيش

* ناشط سياسي يساري، صحفي، وأحد ومديري مؤسسي «مركز المعلومات البديلة»

بمقدار حجم الخوف والفزع اللذين خيَّما عشية الحرب، هكذا كانت أيضا شدة النشوة التي انتابت الإسرائيليين بعد انتصار جيوش إسحق رابين (رئيس هيئة الأركان العامة للجيش الإسرائيلي في حرب ١٩٦٧)، حتى أن علمانيين بارزين عاشوا وقتئذٍ نشوة تجربة تأملية، وراحوا يتحدثون عن معجزة سماوية، وعن أن لله يدا فيما حصل. واجتاحت المجتمع الإسرائيلي بأسره موجة من المشاعر القومية الهوجاء، دفعت بناشطين من عناصر اليسار الراديكالي، العائدين من غزة المحتلة، إلى الحديث بعبارات من قبيل إنها «حرب أبناء النور ضد أبناء الظلمة».

الإسرائيلي في حرب ١٩٦٧)، حتى أن علمانيين بارزين عاشوا وقتئذٍ نشوة تجربة تأملية، وراحوا يتحدثون عن معجزة سماوية، وعن أن لله يدا فيما حصل. واجتاحت المجتمع الإسرائيلي بأسره موجة من المشاعر القومية الهوجاء، دفعت بناشطين من عناصر اليسار الراديكالي، العائدين من غزة المحتلة، إلى الحديث بعبارات من قبيل إنها «حرب أبناء النور ضد أبناء الظلمة»، وذلك بعدما انبهرت أبصارهم بأضواء مجنزرات الجيش الإسرائيلي، حتى أن أوري أفنيري دعا حين أوشكت الحرب على نهايتها، إلى احتلال دمشق وإسقاط نظام الحكم التقدمي بزعامة صلاح جديد. أما نشطاء الحزب الشيوعي الإسرائيلي (العرب) فقد التزموا الصمت أمام هزيمة عبد الناصر وانهيار آمالهم في التحرر .

في هذه الأجواء الهستيرية والاجتماعية، كان الفلسطينيون الذين أُحتُلت أراضيهم للتو في الضفة الغربية وقطاع غزة، مجرد أُناس هامشيين لا حول لهم ولا قوة، أو إن شئتم أشبه بديكور يزين المشهد المدهش لأسواق الخليل والبلدة القديمة في القدس، التي انقضّت عليها حشود «شعب إسرائيل»، ما أن انتهى انقضاض جنود قوات الجيش الإسرائيلي بقيادة مردخاي غور وعوزي نركيس. وكما حصل في « سدوم» التوراتية (مدينة لوط)، كان بين المنجرفين خلف عبادة وتقديس القوة، نفر من الناس المتبصرين الذين لم يفقدوا بوصلة الضمير الأخلاقي وبصيرتهم السياسية. فقبل بضعة أيام من اندلاع الحرب، أصدر هؤلاء، بالاشتراك مع ناشطين يساريين فلسطينيين، نداء في لندن، شجبوا فيه الكولونيالية الصهيونية والرجعية العربية على حد سواء. وبعدما شارفت الحرب على الانتهاء، أصدر هؤلاء نداء ثانيا يحذر من الانعكاسات والتداعيات التدميرية للحرب على المنطقة والعالم بأسره. غير أن الجدير بدخول التاريخ في هذا السياق هو البيان الذي نُشر في صحيفة «هآرتس» في ٢٢ أيلول ١٩٦٧ ، فعلى الرغم من مرور ٥٠ عاما على نشر هذا البيان، الذي حمل تواقيع ١٢ شخصية، إلا أن كل كلمة وردت فيه ما زالت نافذة وصحيحة، وعليه سوف أقتبسه هنا بأكمله، وذلك تقديرا للطلائعيين الموقعين عليه :

«إن حقنا في الدفاع عن أنفسنا أمام الإبادة لا يعطينا الحق في قمع الآخرين . إن الاحتلال سيجر خلفه سلطة أجنبية، والسلطة الأجنبية ستجر إلى مقاومة، والمقاومة ستجر قمعا، والقمع سيجر إرهابا وإرهابا مضادا .

إن ضحايا الإرهاب هم بصورة عامة أُناس أبرياء

إن الاحتفاظ بالمناطق من شأنه أن يحولنا إلى شعب من القتلة والمقتولين.

لنخرج من المناطق فورا !

(الموقعون على البيان)

شمعون تسبار

دافيد آرنفيلد

دوف عومر

رئيف الياس

حاييم هنغبي

أوري لفشيتس

د. موشي محوفار

إيلي أمينوف

رافي زخروني

آرييه بوبر

شينيئور شيرمان

يهودا روزنشتراوخ

وقد ظل رفض الاحتلال طوال أربع سنوات مقترنا في إسرائيل بـ«ماتسبين»، كما وظل هذا الاسم ذاته مقترنا برفض الاحتلال، إلى أن ظهرت، في العام ١٩٧٠ فقط، مجموعات أخرى رافضة للاحتلال، وبدأت تتعالى، هنا وهناك، أصوات احتجاج أطلقتها حفنة من المثقفين .

إلى ذلك، وفي أعوام الاحتلال الأولى، كان المثقفون التقدميون في الظاهر، من أشد المهاجمين لنشطاء منظمة «ماتسبين» (ولاسيما الناشطات اللائي نعتهن اولئك المثقفين بـ «مومسات العرب»)، وكان من بين هؤلاء المثقفين الكاتبان عاموس كينو (كينان) ودان بن أموتس، والصحافي أوري أفنيري، الذي ساوى نشطاء « ماتسبين» بالعملاء والمتعاونين مع النازيين ..

إسرائيل بعد حرب حزيران: حقبة جنون العظمة.

واستمرارا لهذه المبادرة الاستثنائية، ثمّة اسم اشتهر بسرعة متحولا إلى مَعلمٍ في هذا السياق، ونقصد « ماتسبين».

كانت «ماتسبين» في ما سبق اسما للمجلة الفصلية التي تصدرها « المنظمة الاشتراكية الإسرائيلية»، التي انشق مؤسسوها عن الحزب الشيوعي الإسرائيلي في العام ١٩٦٣ ، على أرضية نشوب خلافات عدة في الرأي. وكان أكثر الخلافات أهمية هو ذلك الذي دار حول رفض قبول موقف الحزب الشيوعي («ماكي») من حرب العام ١٩٤٨ ، حيث اعتبرها الحزب «حرب تحرير».

ففي نهاية العام ١٩٦٧ ، خرج نشطاء «ماتسبين» إلى شوارع المدن الكبرى (في إسرائيل) وملأوا الجدران بشعار بسيط، لكنه كان شعارا ثوريا في ذلك الوقت : « ليسقط الاحتلال».

صوت صارخٌ في البريّة

وقد ظل رفض الاحتلال طوال أربع سنوات مقترنا في إسرائيل بـ«ماتسبين»، كما وظل هذا الاسم ذاته مقترنا برفض الاحتلال، إلى أن ظهرت، في العام ١٩٧٠ فقط، مجموعات أخرى رافضة للاحتلال، وبدأت تتعالى، هنا وهناك، أصوات احتجاج أطلقتها حفنة من المثقفين .

إلى ذلك، وفي أعوام الاحتلال الأولى، كان المثقفون التقدميون في الظاهر، من أشد المهاجمين لنشطاء منظمة «ماتسبين» (ولاسيما الناشطات اللائي نعتهن اولئك المثقفين بـ«مومسات العرب»)، وكان من بين هؤلاء المثقفين الكاتبان عاموس كينو (كينان) ودان بن أموتس، والصحافي أوري أفنيري، الذي ساوى

في الخامس من تشرين الأول ١٩٧٣، اهتزت الأرض تحت أقدام القادة السياسيين والعسكريين الإسرائيليين، وإنهار في غضون ٢٤ ساعة ما دعي فيما بعد بـ «التصور».

بعد أسبوع من حالة التقهقر العسكري والذعر في صفوف الزعامة السياسية، وبفضل القطار الجوي الأميركي الذي نقل إمدادات وأسلحة إلى الجيش الإسرائيلي، من القذائف وحتى المدافع، تَعَدَّلت موازين القوى على جبهات القتال، وتم التوصل بوساطة أميركية، إلى وقف لإطلاق النار وفصل للقوات المتحاربة.

حين بدأ الجنود بالعودة إلى بيوتهم، عادوا وهم يحملون شحنة غضب هائل إزاء الفشل الذي منيت به القيادتان السياسية والعسكرية.

نشطاء « ماتسبين» بالعملاء والمتعاونين مع النازيين .. غير أنه من الجدير بالإشارة هنا إلى أن هؤلاء عادوا إلى رشدهم بعد مرور بضع سنوات، إذ أصبح أوري أفنيري، على سبيل المثال، المتحدث الأكثر حدة وسلاطة لسان باسم الحركة المناهضة للاحتلال .

كيف تحولت مجموعة لم يزد عدد أفرادها قط عن بضع عشرات من الناشطات والناشطين، إلى الـ « عدو رقم واحد» للجمهور الإسرائيلي ؟! كيف حصل أنه لم يكن يمر يوم واحد إلا وتردد فيه اسم «ماتسبين» في وسائل الإعلام الإسرائيلية، مقرونا في الغالب الأعم بسلسلة من الشتائم، من قبيل : « خونة «، و «كارهي إسرائيل» وما شابه ذلك ؟! كيف أصبحت مجموعة صغيرة، مجموعة مشهورة جدا ؟!

هناك إجابتان على هذه التساؤلات:

أولا، شذوذ آرائها في ظل وجود «إجماع قومي» تام، إذ بدا ذلك أشبه ببقعة صغيرة من النبيذ تلطخ خريطة بيضاء كبيرة، ناشزة في اختلافها، لاسيما وأن حفنة هؤلاء الناشطين لم تألُ جهدا في سبيل بث ونشر آرائها، من القدس وحتى أشدود، من ساعات الصباح الباكر أمام أبواب المصانع، وحتى ساعة متأخرة من الليل في مقاهي شارع ديزنغوف (وسط تل أبيب).

الإجابة الثانية مرتبطة بما أثارته نشاطات « ماتسبين» من صدى واسع في صفوف محافل اليسار الراديكالي في العالم . فقد شهدت تلك الأيام من شهر أيار ١٩٦٨، اندلاع تمرد الطلبة الجامعيين في (فرنسا والغرب) وتصاعد مظاهرات حركات الاحتجاج الجماهيرية ضد الحرب الأميركية في فيتنام .

صحيح أن «ماتسبين» كانت هنا، في إسرائيل، أقلية هامشية، لكنها كانت في العالم جزءا من الأكثرية، حتى أن التعاطف الواسع الذي حازت عليه المنظمة في سائر أنحاء العالم، عاد ليتردد صداه في إسرائيل مثيرا قلق السلطات والمتحدثين باسمها في وسائل الإعلام (الميديا) والمؤسسة الأكاديمية.. فمثلا، قال آشرين ناتان(السفير الإسرائيلي في ألمانيا) الذي كان يتحدث أمام جمع من الطلبة في جامعة برلين، طالبوا بتمكين ممثل لمنظمة «ماتسبين» من التحدث على المنصة باسم «إسرائيل البديلة»، قال بغضب: « كم عدد أعضاء ماتسبين؟! إنهم لا يزيدون عن عشرين ألفا على أبعد تقدير ؟!»، علما أن عددنا لم يكن يتجاوز ٥٠ ناشطا !

زلزال أكتوبر ١٩٧٣ وظهور حركة «السلام الآن»

عمت حالة من الانبهار التام في صفوف المجتمع الإسرائيلي وقيادته جراء الثقة المفرطة بالنفس، التي ولدها الانتصار العسكري في حرب ١٩٦٧ . وقد تكهن وزير الدفاع في ذلك الوقت، موشيه ديان، بأن حالة من «اللاسلم واللاحرب «ستسود لألف عام . وتوعد جنرال شاب في ذلك الحين يدعى أريئيل شارون كل من تسول له نفسه معارضة أحلام «إمبراطورية إسرائيل من المغرب وحتى جبال طوروس».

في الخامس من تشرين الأول ١٩٧٣ ، اهتزت الأرض تحت أقدام القادة السياسيين والعسكريين الإسرائيليين، وإنهار في غضون ٢٤ ساعة ما دعي فيما بعد بـ «التصور».

بعد أسبوع من حالة التقهقر العسكري والذعر في صفوف الزعامة السياسية، وبفضل القطار الجوي الأميركي الذي نقل إمدادات وأسلحة إلى الجيش الإسرائيلي، من القذائف وحتى المدافع، تَعَدَّلت موازين القوى على جبهات القتال، وتم التوصل بوساطة أميركية، إلى وقف لإطلاق النار وفصل للقوات المتحاربة.

حرب اوكتوبر: صفعة قوية لغطرسة إسرائيل، وتداعيات داخلية عميقة.

حين بدأ الجنود بالعودة إلى بيوتهم، عادوا وهم يحملون شحنة غضب هائل إزاء الفشل الذي منيت به القيادتان السياسية والعسكرية. في أعقاب ذلك انطلقت، بمبادرة ملازم في قوات الإحتياط يدعى موطي أشكنازي، حركة احتجاج واسعة طالبت بمحاسبة تلك القيادة. وقد أدى نشاط حركة الاحتجاج هذه –هكذا سميت في ذلك الوقت – إلى الإطاحة بحكومة غولدا مائير، وإضعاف سلطة حركة العمل (حزب العمل الإسرائيلي)، وأدى كل ذلك في نهاية المطاف إلى ما عرف بـ «الانقلاب» السلطوي في العام ١٩٧٧، وصعود حزب الليكود إلى سدة الحكم. بعد ذلك جاءت الزيارة التاريخية التي قام بها الرئيس المصري أنور السادات إلى القدس، ودعوته إلى إحلال السلام بين مصر وإسرائيل، لتمهد الأرضية من أجل الاستجابة لمبادرة الرئيس السادات: «السلام أفضل من أرض إسرائيل (الكاملة)»، هذه العبارة كانت شعار الحركة الجماهيرية التي تشكلت وقتئذ، والتي سرعان ما اتخذت لنفسها اسم : حركة «السلام الآن».

وقد مارست هذه الحركة ضغطا هائلا على حكومة مناحيم بيغن، التي ترددت في قبول شروط ومطالب المصريين، ثم عادت ووافقت في نهاية المطاف، جراء تلك الضغوط، على توقيع معاهدة كامب ديفيد، وإنهاء حالة الحرب مع مصر.

والجدير بالذكر أن المطالب السياسية التي نادت بها «حركة السلام الآن» والجماهير المؤيدة لها، ركزت على السلام بين إسرائيل والدول العربية، وفي طليعتها مصر، فيما لم يكن الاحتلال والفلسطينيون على الإطلاق جزءا من الخطاب والمطالب المطروحة من جانب هذه الحركة.

لقد احتاجت حركة «السلام الآن» ثلاث سنوات أخرى لبلورة ما أسمته «الصيغة الفلسطينية» في برنامجها السياسي، وهذه الصيغة، التي إن كان ثمة صلة بينها وبين الواقع الفلسطيني والإقليمي، فلا تعدو كونها صلة عابرة بالتأكيد، سرعان ما طواها النسيان عقب اندلاع حرب لبنان (١٩٨٢)، وتحولت إلى «caduque» (فراغ) مع اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الأولى (١٩٨٧). هذه الانتفاضة هي التي أرغمت معسكر السلام الإسرائيلي على الإصغاء لمطالب الشعب الفلسطيني ورفضه بصورة تامة وقاطعة للاحتلال والاستعمار الكولونيالي الإسرائيلي، وعلى الإقرار بأن منظمة التحرير الفلسطينية وحدها فقط هي الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني، والقادرة على التحدث باسمه .

كما هو معروف، كان الفلسطينيون في نظر الأغلبية الساحقة من السكان الإسرائيليين، لغاية حرب لبنان (١٩٨٢)، مجرد خليط من مجموعات إرهابية يجب القضاء عليها، وسكان يخضعون لسلطة حكم عسكري ليس لهم كيان سياسي أو قومي خاص بهم، وأنه إذا كان ثمة ممثلون لهم، فهؤلاء لا يعدو كونهم «وجهاء» يعملون كوسطاء بين السكان وبين السلطة الحاكمة .

العلاقة مع الحركة الوطنية الفلسطينية

كما هو معروف، كان الفلسطينيون في نظر الأغلبية الساحقة من السكان الإسرائيليين، لغاية حرب لبنان (١٩٨٢)، مجرد خليط من مجموعات إرهابية يجب القضاء عليها، وسكان يخضعون لسلطة حكم عسكري ليس لهم كيان سياسي أو قومي خاص بهم، وأنه إذا كان ثمة ممثلون لهم، فهؤلاء لا يعدو كونهم «وجهاء» يعملون كوسطاء بين السكان وبين السلطة الحاكمة . وعلى الرغم من أن الحيز الجغرافي الواقع بين البحر المتوسط ونهر الأردن يعتبر حيزا أو وحدة جغرافية واحدة، إلا أنه لم تكن هناك علاقات سياسية بين اليسار الإسرائيلي وبين نشطاء الحركة الوطنية الفلسطينية. ولعل الحالة الشاذة عن هذه القاعدة هي العلاقة التي قامت بين الحزب الشيوعي الإسرائيلي ونظيره الفلسطيني – الأردني، وبعض العلاقات الشخصية التي أقامها أوري أفنيري، ومنظمة «ماتسبين» بطبيعة الحال، والتي بحثت منذ الشهر الثاني لاحتلال العام ١٩٦٧ ، عن شركاء لرؤيتها الإشتراكية والأممية، وهو ما أفضى إلى اعتقال عضو «ماتسبين»، الناشط خليل طعمة، وإلى أول محاكمة بتهمة إقامة علاقة مع « ناشطين» فلسطينيين من المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ .

في فترة متأخرة، ابتعد جيل جديد من الناشطين الفلسطينيين القاطنين في الجليل والمثلث، عن الحزب الشيوعي الإسرائيلي، وكان من ضمن الأسباب التي دعتهم إلى ذلك، رفض هذا الحزب اعتبار فصائل المقاومة الفلسطينية حركات تقدمية، الأمر الذي دفع الكثيرين من هؤلاء الناشطين الشباب إلى إقامة علاقة أو صلة مباشرة مع فصائل المقاومة الفلسطينية – وخاصة اليسارية منها– بل والانضمام إلى صفوفها في حالات قليلة.

غير أن الفلسطينيين (في مناطق ١٩٦٧) كانوا في نظر الأكثرية الساحقة من المجتمع الإسرائيلي، ومن ضمن ذلك في نظر فئاته وشرائحه الأكثر تقدمية، جزءا من المشهد المدهش الجديد، ومجرد قوة عمل في المصانع والحقول وورشات البناء، وبائعات خضار في باب العامود، وميكانيكيو تصليح سيارات في قلقيلية، ولكن ليس بأي حال، جسما أو كيانا سياسيا.

عموما فإن بداية الاتصالات السياسية الجادة مع ممثلي الحركة الوطنية الفلسطينية جرت في الخارج وليس مع ناشطين محليين في الداخل. ومن ناحية عملية، فإن المجتمع الإسرائيلي لم يكتشف، ولم ير، في الفلسطيني من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ، جسما سياسيا سوى بعد اندلاع الانتفاضة الأولى في أواخر العام ١٩٨٧ .

تحوّل العام ١٩٨٢

عندما وقّع بضع عشرات من ضباط وجنود الاحتياط على عريضة رفعت إلى وزير الدفاع بعنوان» يش غبول –يوجد حد»، لم يكن يخطر في بالهم أبدا أن هذه المبادرة ستشق الطريق أمام حركة جماهيرية مناهضة للحرب، وإلى معارضة واسعة داخل صفوف وحدات الجيش التي أرسلت إلى لبنان. فحتى ذلك الوقت، كان الشعب الإسرائيلي يقف، في كل مرة تعلن فيها حالة الحرب، وبغض النظر عن الأسباب، وقفة رجل واحد هاتفا «نعم أيها القائد» أو «أمرك سيدي» ! ولكن في هذه المرة، فإضافة إلى أنه لم يكن هناك أي خطر يتهدد إسرائيل، وقف رئيس الوزراء مناحيم بيغن على منبر الكنيست (البرلمان الإسرائيلي) معلنا إن «الحرب في هذه المرة ليست حربّا اضطرارية»! وإذا كان لدى الحكومة مبرر لشن الحرب أو عدم شنّها، فإن لدينا نحن الجنود أيضا مبرر لاجتياز أو عدم اجتياز الحدود إلى لبنان.

لم تنشأ منظمة «يوجد حد» من العدم، بل سبق ظهورها أربع سنوات من الحراك والنشاط المناهض للاحتلال، بدءا من « اللجنة ضد الاستيطان في الخليل»، مرورا بـ«لجنة التضامن مع جامعة بيرزيت» وانتهاء بـ« اللجنة ضد الحرب في لبنان».

جرى نشوء وتطور الحركة المناهضة للحرب بصورة سريعة للغاية. فعشية غزو لبنان، تظاهر في تل أبيب قرابة ٣ آلاف رجل وامرأة من نشطاء اليسار الراديكالي -الحزب الشيوعي، منظمة ماتسبين، أوري أفنيري وأنصاره، مجلس الطلبة الجامعيين العرب وحركة أبناء البلد- وأعلنوا، في اللحظة الأخيرة، عن تحويل لجنة التضامن مع جامعة بير زيت إلى « لجنة ضد الحرب في لبنان».

لم تنشأ منظمة «يوجد حد» من العدم، بل سبق ظهورها أربع سنوات من الحراك والنشاط المناهض للاحتلال، بدءا من «اللجنة ضد الاستيطان في الخليل»، مرورا بـ «لجنة التضامن مع جامعة بيرزيت» وانتهاء بـ «اللجنة ضد الحرب في لبنان».

جرى نشوء وتطور الحركة المناهضة للحرب بصورة سريعة للغاية. فعشية غزو لبنان، تظاهر في تل أبيب قرابة ٣ آلاف رجل وامرأة من نشطاء اليسار الراديكالي –الحزب الشيوعي، منظمة ماتسبين، أوري أفنيري وأنصاره، مجلس الطلبة الجامعيين العرب وحركة أبناء البلد– وأعلنوا، في اللحظة الأخيرة، عن تحويل لجنة التضامن مع جامعة بير زيت إلى « لجنة ضد الحرب في لبنان». بعد أسبوعين فقط من اجتياح لبنان، تظاهر نشطاء اللجنة ضد الحرب في لبنان وحركة «يوجد حد» في ساحة «ملوك إسرائيل»، وبلغ عدد المتظاهرين قرابة ١٠ آلاف رجل وامرأة، كان من ضمنهم عدد كبير من الجنود بالزي العسكري ممن عادوا للتو من ضواحي بيروت. في خضم التظاهرة طلب أحد قادة حركة « السلام الآن» حق الكلام وذلك ليدعو إلى مظاهرة قال إن حركته تعتزم تنظيمها بعد أسبوع في الساحة ذاتها. وبالفعل فقد تظاهر في الموعد المحدد أكثر من مئة ألف شخص تحت شعار « لا حرب بعد الآن كهذه الحرب» (!)

تجدر الإشارة هنا إلى أن حركة السلام الآن كانت، حتى شهر واحد قبل هذه المظاهرة، تؤيد الحرب في لبنان، وترى فيها، كما هو الحال دائما، حربا دفاعية مبرّرة. وقد استخدم المتحدثون باسم السلام الآن أقسى الكلمات في مهاجمة المبادرين لإقامة « اللجنة ضد الحرب في لبنان»، وصرّح أحد هؤلاء المتحدثين قائلا : « عندما تدوّي المدافع تصمت الأقلام»، وذلك بغية تبرير رفض حركته (السلام الآن) معارضة الحرب.

مجتمع منقسم على نفسه

للمرة الأولى في تاريخ إسرائيل، ظهر المجتمع الإسرائيلي منقسما على نفسه، والأنكى أن هذا الانقسام وقع في خضم حرب. فالإجماع القومي الذي ميز إسرائيل طوال أكثر من عقدين، إنهار وتبدد وقد قبع في خلفية هذا الشرخ الجديد «انقلاب» العام ١٩٧٧ ، وخسارة حركة العمل للسلطة لصالح حزب الليكود بزعامة مناحيم بيغن. لقد كانت الدولة بالنسبة لحركة العمل بمثابة ملكية خاصة، ومن هنا أُعتبر صعود حزب الليكود إلى سدة الحكم أشبه بكارثة، ولكنها كارثة مؤقتة سرعان ما سيتم إصلاحها ليعود كل شيء إلى ما كان عليه بسلام.

وبما أن «حركة العمل» كانت على مقاعد المعارضة، فقد مكنها ذلك من التجند والوقوف ضد الحرب، على الرغم من أنها أيدت في الشهر الأول هذه الحرب دون أي تحفظ ... وذلك إلى أن تعثرت هذه الحرب على بوابات بيروت وفي ضواحيها، ولم يعد بالإمكان إنكار أهدافها السياسية كما رسمها وزير الدفاع وقتئذ، أريئيل شارون، الذي سعى إلى تنصيب حزب الكتائب، ليتولى مقاليد السلطة، وفرض نظام جديد في بلاد الأرز.

كان ثمة من أطلق على حرب لبنان اسم «حرب الكذب والافتراء»، وذلك عندما اتضح بأنه لم يكن لهذه الحرب أي علاقة تقريبا بعمليات المقاومة الفلسطينية على الحدود الشمالية لإسرائيل، أو أي صلة بمحاولة اغتيال سفير إسرائيل في لندن (شلومو أرغوف). فقد كان هدف الحرب الذي وضعه أريئيل شارون يتمثل في تغيير نظام الحكم في لبنان، وذلك عبر محاولة سحق وتدمير قوة منظمة التحرير الفلسطينية في هذا البلد. ربما يمكن القول أن شارون نجح في تدمير قوة المقاومة الفلسطينية في لبنان وطرد قياداتها وكوادرها إلى تونس، ولكن مما لا ريب فيه أنه منيَّ بالفشل في «مشروعه الكبير»، ألا وهو إقامة نظام «كتائبي حصري « في لبنان.

ففي غضون بضعة أسابيع فقط اكتشف الجمهور الإسرائيلي أنه يعيش إلى جانب، ليس فقط عمال بناء وورشات تصليح سيارات، وعاملات زراعيات وبائعات نعناع وبقدونس في باب العامود وضواحي «غوش دان»، وإنما يعيش إلى جانبه شعب يمتلك وعيا ذاتيا وتوقا للحرية وقيادة واستعدادا للنضال.

لقد شكلت صدمة الانتفاضة هزة لا تقل عن هزة (حرب) اكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٣. فقد اضطر المجتمع الإسرائيلي خلال بضعة أسابيع، وطوال قرابة ثلاثة أعوام، للعيش حسب وتيرة الانتفاضة : إذ تغير الحيز الذي يعيش فيه هذا المجتمع، وخيم عليه الخوف، ولكن أيضا إلى جانب حد معين من الشعور بالكرامة؛ ذلك لأن الأحداث أثارت لدى المئات من الإسرائيليين، ولدى الآلاف فيما بعد، رغبة في فهم ورؤية ما يحدث حولهم، وراح البعض منهم يبحثون عن سبل للحوار.

وهكذا، فقد انقسم المجتمع الإسرائيلي منذ العام ١٩٨٢ إلى قسمين، وتحول هذا الانقسام، الذي يدمج بين موضوع النزاع الإسرائيلي – العربي، والموضوع الاجتماعي، إلى ظاهرة دائمة، ويدور الحديث هنا عن ما يشبه مجتمعين منفصلين مشبعين بشعور من الاغتراب والنكران المتبادل والخوف من الآخر. ففي الوقت الذي يرى فيه القسم الأكثر تماسكا، والذي يتركز تواجده بشكل أساسي في تل أبيب وشريط السهل الساحلي، في نفسه جزءا من الغرب الصناعي والليبرالي، وينصب جل اهتمامه ومصلحته على بناء وتشكيل المجتمع الإسرائيلي برمته على صورته (أي صورة القسم ذاته)، كان الجزء الثاني، الذي يقطن في الغالب في بلدات ومدن التطوير، ويعيش فيما يسمى بـ» الهامش» حياة فقر وضنك (وفقا لتقارير مؤسسة التأمين الوطني، يعيش ٣٠ ٪ من مواليد إسرائيل تحت خط الفقر)، ويشعر بحق بأنه مهمش ومُذَلٌ من جانب « الإسرائيليين الغربيين «. هذا الجزء الذي جرت العادة على تسميته بـ « إسرائيل الثانية « ضاق ذرعا بحكم حزب «العمل» المتعالي، وأقام لنفسه بيتا داخل أحزاب اليمين والأحزاب الدينية.

وهكذا، وفي الوقت الذي كانت فيه الطبقات الثرية تتبنى في غالبيتها مواقف معتدلة نسبيا، فقد كانت الطبقات الفقيرة تتماهى مع اليمين ومع الأيديولوجيا اليمينية لهذه الأحزاب. ومن هنا فإن الحديث يدور إذن على شرخ اجتماعي، سياسي وايديولوجي بين شطرين أو قسمين في المجتمع الإسرائيلي، متساويين إلى هذا الحد أو ذاك من حيث العدد. وفيما يضم القسم الأكثر اعتدالا، الأقلية الفلسطينية في إسرائيل، والتي تشكل ما نسبته ٢٠٪ من مجموع السكان، فإن غالبية المجتمع اليهودي تتماهى إذن مع سياسة الاحتلال الكولونيالي ومع العنصرية المناهضة للعرب، والتي راحت تتنامى أكثر فأكثر طوال العقدين الأخيرين .

أصداء الانتفاضة (الأولى)

كما أسلفنا، تجاهل السكان اليهود الإسرائيليون كليا، خلال الفترة الواقعة بين العام ١٩٦٧ والعام ١٩٨٧ ، السكان الفلسطينيين الذين عاشوا تحت سلطتهم ككيان سياسي. غير أن اندلاع الانتفاضة جاء ليقلب الوضع رأسا على عقب. ففي غضون بضعة أسابيع فقط اكتشف الجمهور الإسرائيلي أنه يعيش إلى جانب، ليس فقط عمال بناء وورشات تصليح سيارات، وعاملات زراعيات وبائعات نعناع وبقدونس في باب العامود وضواحي «غوش دان»، وإنما يعيش إلى جانبه شعب يمتلك وعيا ذاتيا وتوقا للحرية وقيادة واستعدادا للنضال.

لقد شكلت صدمة الانتفاضة هزة لا تقل عن هزة (حرب) اكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٣. فقد اضطر المجتمع الإسرائيلي خلال بضعة أسابيع، وطوال قرابة ثلاثة أعوام، للعيش حسب وتيرة الانتفاضة : إذ تغير الحيز الذي يعيش فيه هذا المجتمع، وخيم عليه الخوف، ولكن أيضا إلى جانب حد معين من الشعور بالكرامة؛ ذلك لأن الأحداث أثارت لدى المئات من الإسرائيليين، ولدى الآلاف فيما بعد، رغبة في فهم ورؤية ما يحدث حولهم، وراح البعض منهم يبحثون عن سبل للحوار. لقد شكلت الانتفاضة صفعة مباركة للسكان الإسرائيليين كافة، وذلك بعدما كف الفلسطينيون الذين يعيشون في الضفة الغربية وقطاع غزة عن كونهم أناسًا «شفافين».

وهكذا أخذ الآلاف يلتفون حول نشطاء «ماتسبين» و» الحزب الشيوعي» وقلة من الصهيونيين المنفتحين الذين عملوا في فلك أوري أفنيري ومتتياهو بيلد، والذين طالبوا في مظاهرات الاحتجاج بإبداء المزيد من الإنسانية والاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية وإجراء مفاوضات معها بهدف إنهاء الاحتلال وإحلال السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين. بصورة تدريجية تحوّل ما كان يشكل

في الفترة الواقعة بين العام ١٩٨٢ و١٩٨٥ حركة جماهيرية مناهضة لحرب لبنان إلى حركة جماهيرية مناهضة للاحتلال ومؤيدة للسلام الإسرائيلي – الفلسطيني. وإذا كانت المقاومة اللبنانية – الفلسطينية للغزو الإسرائيلي للبنان قد ولدت حركة مناهضة للحرب، فقد أفرزت الانتفاضة الفلسطينية الأولى حركة جماهيرية إسرائيلية أدت فيما أدت، إلى الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية وتدشين عملية أوسلو التسووية . ربما لا يتسع المجال هنا للبحث في أهداف عملية أوسلو من زاوية أولئك الذين كان لهم ضلع فيها، ومسألة ما إذا كان هناك حقا رغبة إسرائيلية جادة وصادقة لإنهاء الاحتلال مقابل تطبيع مع الشعب الفلسطيني والدول العربية، لذا سنكتفي هنا بالقول إن شمعون بيريس جاء، بعد اغتيال رئيس الوزراء إسحق رابين، ليدفن هذه العملية، إن كان ثمة أصلا عملية كهذه.

لقد تلقف «معسكر السلام» الإسرائيلي دون تردد شعار من وصفه رابين بأنه «متآمر لا يكل» (أي شمعون بيريس): **المصالحة القومية قبل المصالحة مع الفلسطينيين**، وبذلك منح وساما لقاتل رابين ولأولئك الذين حرضوا على قتله، أي بنيامين نتنياهو وأريئيل شارون. والمصالحة القومية، أي إيجاد إجماع حول قضية السلام مع الفلسطينيين، كانت تعني إعطاء حق الفيتو لليمين الاستيطاني، علما بأن الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كان نتاجا مباشرا للانتفاضة، وبوساطة معسكر السلام الإسرائيلي.

لقد شكلت «المهلة» التي أملاها بيريس على قادة منظمة التحرير، صفعة مدوية للفلسطينيين الذين فوضوا «أبو عمار» بإجراء مفاوضات مع إسرائيل، والتي كان من الواضح أنها تجري في فترة صعبة بشكل خاص بالنسبة للفلسطينيين، وذلك في الوقت الذي فقدوا فيه تقريبا الأوراق التي كانوا يمتلكونها. هذه الصفعة أدت إلى استئناف العمليات المسلحة في قلب المدن الإسرائيلية.

انتحار آب ٢٠٠٠

في شهر آب من العام ٢٠٠٠، وفي أعقاب انهيار قمة كامب ديفيد على نحوٍ ماكر ومدروس، روج (رئيس الوزراء) إيهود باراك وأعوانه الصيغة القائلة بأن فشل محادثات كامب ديفيد يعود إلى «رفض ياسر عرفات للمقترحات السخية التي عرضها إيهود باراك «. وقد انساقت وسائل الإعلام (الإسرائيلية) كافة وراء هذه الكذبة التي روجها رئيس حكومة إسرائيل، والذي اعترف أمام الملأ بعد عام واحد من محادثات كامب ديفيد ، بأنه لم تكن هناك أي مقترحات سخية كهذه، وأن عرفات لم يكن هو سبب انهيار المفاوضات. بعد بضعة سنوات اعترف أيضا شارل أندرلين، مراسل قناة التلفزيون

انتفاضة ٨٧: اعادة اكتشاف الفلسطينيين!

الفرنسية الثانية، الذي شارك في تغطية محادثات قمة كامب ديفيد الثلاثية، بأنه وقع في الشِرك الذي نصبه باراك ومستشاروه للرأي العام العالمي، وذلك في كتاب جريء وسلسلة أفلام أعدها أندرلين نفسه وعرضت تحت عنوان «الأحلام المكسورة».

لقد كانت الحقيقة معكوسة تماما بطبيعة الحال، فايهود باراك الذي عارض منذ البداية اتفاقيات أوسلو، لم يكن يرغب في التوصل إلى اتفاق مع الفلسطينيين، بل تعمد تخريب هذه المفاوضات. فالمفاوضات يمكن وقفها ويمكن استئنافها، لكن الأمر ليس كذلك من وجهة نظر حركة سلام. فحركة السلام الإسرائيلية التي انتخبت ايهود باراك في أعقاب وعده بالتوصل إلى تسوية سلمية مع الفلسطينيين، خلافا لخصمه في ذلك الوقت بنيامين نتنياهو، اختفت من الوجود في نهاية الأسبوع التي أعلن فيها باراك بأنه كشف خطة عرفات الماكرة، والتي وصفها باراك بأنها أشد خطورة من خطة أحمد الشقيري (أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية)، وذلك لأنها كانت مُقَنعَة بكلمات مصالحة وبجائزة نوبل للسلام. حينها أطلق باراك العبارة الشهيرة:» أنا أقول لكم بأنه لا يوجد شريك ...» وبالفعل فقد كفَّت حركة السلام الإسرائيلية عن الوجود في نهاية ذلك الأسبوع .

وسأجيز لنفسي الاعتراف هنا بأنني، خلافا لكثيرين من زملائي في اليسار، لم أعتَد قط الاحتفاظ بقصاصات من مقالات وأخبار الصحف، وهي عادة كانت متبعة لدى نشطاء اليسار على الأقل، لم تعد ثمة حاجة لها حاليا في عصر الإنترنت .

ولكن، ولا أدري بالضبط لماذا ولأي سبب، احتفظت في نهاية ذلك الأسبوع، خلافا لعادتي، بنحو عشرين قصاصة من مقالات الصحف: مقالات افتتاحية، مقابلات، أعمدة وروبرتاجات. هذه القصاصات التي ما زلت أحتفظ بها حتى اليوم، تدور حول نفس الموضوع : «معسكر

في شهر آب من العام ٢٠٠٠، وفي أعقاب انهيار قمة كامب ديفيد على نحوٍ ماكر ومدروس، روج (رئيس الوزراء) إيهود باراك وأعوانه الصيغة القائلة بأن فشل محادثات كامب ديفيد يعود إلى «رفض ياسر عرفات للمقترحات السخية التي عرضها إيهود باراك «. وقد انساقت وسائل الإعلام (الإسرائيلية) كافة وراء هذه الكذبة التي روجها رئيس حكومة إسرائيل، والذي اعترف أمام الملأ بعد عام واحد من محادثات كامب ديفيد ، بأنه لم تكن هناك أي مقترحات سخية كهذه، وأن عرفات لم يكن هو سبب انهيار المفاوضات. بعد بضعة سنوات اعترف أيضا شارل أندرلين، مراسل قناة التلفزيون الفرنسية الثانية، الذي شارك في تغطية محادثات قمة كامب ديفيد الثلاثية، بأنه وقع في الشِرك.

السلام يعترف بخطئه»؛ «معسكر اليسار يعتذر لليمين»، وما شابه ذلك من عناوين . إحدى هذه القصاصات هي غلاف ملحق نهاية الأسبوع لصحيفة «هآرتس»، وتظهر فيه صورة يشاهد فيها مستوطن وأحد نشطاء حركة السلام يسيران جنبا إلى جنب متعانقين، وذلك تحت عنوان « منذ الآن ..معا وسويا « !

ليست الانتفاضة الثانية هي التي أنهت مسيرة حركة «السلام الآن»، وإنما الحركة نفسها التي قررت قبل ذلك ببضعة أشهر، وتحديدا في منتصف شهر آب (عام ٢٠٠٠) الانتحار !

بعد مرور عام ونصف العام، أدرك كثيرون من دعاة السلام في إسرائيل الخطأ الذي وقعوا فيه، وأبدوا رغبتهم في إعادة ترميم حركة السلام الإسرائيلية، ولكن ثمة أمور في الحياة من السهل تصفيتها، ولكن من الصعب جدا إصلاحها . إن الجيل الذي خان لن يستطيع إصلاح أو إعادة ترميم حركة السلام الجماهيرية. تقع هذه المهمة على عاتق جيل أبنائنا، لكن هذا الترميم لن يتم دون إصلاح أو تصحيح عميق وإعادة نظر فيما كان يمثل مسلمات وبديهيات لدى معسكر السلام الواسع . حتى الآن، يمكن القول أنه لم يعد هناك وجود لمعسكر سلام في إسرائيل .

العجلتان

اعتاد أوري أفنيري وصف الحركة المناهضة للاحتلال على أنها دراجة هوائية بعجلتين، إحداهما صغيرة والأُخرى كبيرة. وترمز العجلة الصغيرة للحركة المناهضة للاحتلال والحرب التي تسمى راديكالية، والتي تعمل بموجب قيم و/ أو أيديولوجيات مناهضة للاحتلال والقمع والحرب؛ وهي حركة عربية – يهودية وتضم الحزب الشيوعي وحركات عربية أُخرى، وحركات « تعايُش»، «غوش شلوم– كتلة السلام»، جمعيات حقوق الإنسان، «حاخامات من أجل حقوق الإنسان»، « مركز المعلومات البديلة»، وما إلى ذلك . وهذه العجلة الصغيرة مُجنّدة بصورة دائمة ولا تحتاج لحادث دراماتيكي من أجل العمل والاحتجاج.

أما العجلة الكبيرة فتتألف من معسكر السلام الواسع، وتنتمي إلى «الإجماع» الإسرائيلي، وهي مقربة من أحزاب الوسط – اليسار المؤسسية، وكانت ممثلة على امتداد سنوات طوال من قِبل «حركة السلام الآن» .

وفيما كانت الحركة «الراديكالية» قادرة في ذروة مسيرتها على حشد عدد يصل إلى عشرين ألف متظاهر، فقد استطاعت حركة «السلام الآن» حشد ما بين مئة ألف متظاهر ومئتي ألف متظاهر (مثلا في أعقاب مذابح صبرا وشاتيلا) . وقد عمل ميكانيزم النضال ضد الحرب والاحتلال بطريقة تتجند فيها العجلة الصغيرة بشكل يؤدي بالتدريج إلى تحريك العجلة الأكبر. ومن اللحظة التي تتحرك فيها العجلة الكبيرة فإن ذلك كان يعطي إشارة على حدوث تحول لدى الرأي العام، وأن سياسة الحكومة – احتلال لبنان ورفض إجراء مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية – في سبيلها إلى التغير نحو الأفضل، ومن ضمن ذلك بثمن حدوث «انقلاب» سلطوي.

بعد «انتحار» العام ٢٠٠٠ لم يبق أي أثر أو ذكرٍ من العجلة الكبيرة. فقد «ماتت» حركة السلام الآن، وانضم نشطاؤها الذين لم يكونوا مستعدين لرفع أيديهم، إلى مبادرات « العجلة الصغيرة» . وكما أمكن ملاحظته في أحداث مهمة (مثل المذابح في غزة والغارات وعمليات القصف في لبنان) فقد استمرت العجلة الصغيرة في حشد بضعة آلاف من المتظاهرين، غير أنه لم تعد هناك عجلة كبيرة تدفع نحو الأمام .وهكذا لم تعد الحركة المناهضة للاحتلال قادرة على التأثير على صانعي القرارات في إسرائيل، وعادت هذه الحركة لتتحول مجددا إلى مجرد حركة احتجاج.

(ترجمه عن العبرية: سعيد عياش)